Journal of Alasmarya University
Volume 15, December 2010

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الخامس عشر، ديسمبر 2010

بلاغة التعقيب في الفواصل القرآنية

د. حسن مسعود الطوير*

يعد الإعجاز البياني أهم وجوه الإعجاز القرآني وأبرزها، وهو يعني أن القرآن قد بلغ الذروة في الفصاحة والبلاغة، ودقة النظم وجمال التركيب، وكما أن القرآن معجز بحسب فصاحة ألفاظه، فهو معجز أيضاً بشرف معانية، التي جاءت مطابقة لمقتضيات أحوال النفس البشرية في جميع مراحلها العمرية، وأزمنتها المتعاقبة، وأمكنتها المختلفة، وجاءت ألفاظه منسجمة مع تلك المعاني، مؤدية لها في صور ناطقة بالحياة والإيحاء.

ومن أبرز مظاهر الإعجاز البياني ذلك التعقيب بالإجمال لمعنى الآية، أو التعليل لها أو إظهار غرضها، والذي أطلق عليه علماء البلاغة الفواصل القرآنية، وباستقراء آيات القرآن الكريم يتبين أن لفظ الفاصلة أو الفواصل لم يرد في كتاب الله، وإنما وردت مشتقاته في قوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ [الأعراف: 52]، وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: 133].

وهذه الإيحاءات تشير إلى الفاصلة، فلم يعدم العلماء أن يجدوا في القرآن الكريم مستنداً لهذا المصطلح. ويفسر ابن منظور قوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ﴾ بقوله: «له معنيان أحدهما تفصيل آياته بالفواصل، والآخر بيناه، وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي بين كل آيتين فصل، تمضي هذه وتأتي هذه، وبين كل آيتين مهلة»[1]. فقد جعل ابن منظور أواخر الآيات في كتاب الله فواصل، واحدتها فاصلة.

---

* جامعة الجبل الغربي.

1- لسان العرب، دار صادر، بيروت، 524/11

وقد نسب السيوطي إلى الجاحظ قوله: «سمى الله تعالى كتابه اسماً مخالفاً لما سمى الرب كلامهم على الجملة والتفصيل، سمى جملته قرآناً كما سموا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضه آية كالبيت، وآخرها فاصلة كالقافية»[2]. ولا غرابة في نسبة هذا القول للجاحظ، فقد ذكر هذا في كتابه المفقود، (نظم القرآن).

وذهب بعض العلماء إلى أن «الفاصلة تقع عند الاستراحة بالخطاب، لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل، لأنها ينفصل عندها الكلامان»[3].

إن الفاصلة علامة تميز القرآن، وتنأى به عن الشعر والنثر، يقول الخفاجي: «وأظن الذي دعاهم إلى تسمية كل ما في القرآن فواصل، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً، رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم»[4].

وقد عرف الرماني الفواصل بقوله: «هي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني»[5]. وقد زعم زغلول سلام أن الرماني ت 386 هـ هو أول من سمى نهايات الآيات فواصل[6]. وهذا كلام لا يستقيم، لأن هذه التسمية سبقت عصر الرماني بكثير.

وقد أورد أحد المحدثين المصطلحات التي وضعها علماء البلاغة ألقاباً لتوافق التناسب المعنوي في خواتم الآيات، وأكد أن هذه التعريفات أدت إلى الإكثار من الأبواب البديعية من جهة، وإلى الضمور في الكشف عن أسرار البلاغة في التذييلات القرآنية، فهو يرى «أنه للتخلص من هذه المساوي، والتخفيف من تلك التعددية السلبية في المصطلحات يفضل استعمال مصطلح واحد لهذا الفن البديعي وهو (التعقيب)، ويعني الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختام الآية القرآنية متضمناً معنى مناسباً لمعناها»[7].

2- الإتقان في علوم القرآن، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ط الأولى (1967/1387)، 294/3.

3- المصدر نفسه: 290/3

4- معترك الاقران، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى (1408 - 1988)، 26/1.

5- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، ط الثانية 1969، ص 89.

6- انظر: أثر القرآن في تطور النقد العربي، دار المعارف، مصر ط الثانية، 1961 ف، ص 242.

7- التناسب البياني في القرآن، أحمد أبو زيد، 69

« إن الفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد، شحنة من الواقع الموسيقي، وشحنة من المعنى المتمم للآية »[8]. وإن شحنة المعنى تتجلى بارزة عند إمعان النظر في الآية وما حملت من فكر، والخاتمة دائماً منسجمة كل الانسجام مع تلك المعاني، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 226-227] فختام الآية الأولى تعليل لرفع الحرج عن العازم على إرجاع امرأته، وختام الآية الثانية إعلام بأن الله مطلع على نية المطلق، وسامع لما يلفظ به، وفيه تحذير من الأضرار والظلم.

ولما كان التذييل نوعاً من الإطناب الذي يقع به تقرير المعنى، فإن الإحساس بالتناسب بين الآية وما توحي به قد ظهر مبكراً، اخرج ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن زيد بن ثابت أنه كان يكتب ما يملي عليه الرسول ﷺ، فأملى عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون: 12-14]. وهنا نهض صحابي آخر هو معاذ بن جبل فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: 14] فضحك الرسول ﷺ فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: « بها ختمت »[9].

إن العربي بفصاحته وذوقه وحسه المرهف يدرك مكانة الفاصلة وموقعها وما تتركب منه، بل وما ينبغي أن تكون عليه، ومن أمثلة ذلك ذكر أن أعرابياً استمع إلى رجل وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: 38]، فختمها القارئ بقوله والله غفور رحيم، فقال الأعرابي: « ما هذا كلام فصيح إنه يقطع الأيدي نكالاً، فراجع القارئ نفسه، وأدرك خطأه، عندها قال الأعرابي: بخ بخ عز فحكم فقطع »[10].

وكذا عند قوله تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 209]، فقد روى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية

8- التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، دار الشروق، بيروت، ط الرابعة (1400/1980)، ص 203

9- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 110/12

10- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية المحازبي، تحق: المجلس العلمي بفارس، المحمدية، المغرب، ط الثانية (1403/1982)، 99/5.

ويختتمها بقوله: والله غفور رحيم، فقال « إن كان هذا كلام الله فلا، إن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل: لأنه إغراء عليه» وعاد القارئ فوجد نفسه على خطأ، فالآية انتهت بقوله تعالى ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾(11).

فالأعرابي في القصتين كان أمياً جاهلاً بالقرآن، ولكنه عربي صافٍ، يدرك اللغة بالسليقة، وما يجب أن تكون عليه أساليبها.

وقد أشار عبد الكريم الخطيب إلى أنه « من الفاصلة ما جاء وكأنه تعقيب على الآية، أو تلخيص لمضمونها، وقد تصرف القرآن في هذا تصرفاً عجيباً، فجاء بالفواصل بعد الآيات كأنها رجع الصدى أو إجابة الداعي إذا دعا »(12).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: 25]. « فإن الكلام لو اقتصر على ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾ لأوهم ذلك بعض الضعفاء موافقة الكفار في اعتقادهم أن الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم فلم يبلغوا ما أرادوا، وأن ذلك أمر اتفاقي، فأخبر سبحانه في فاصلة الآية عن نفسه بالقوة و العزة ليعلم المؤمنين ويريدهم يقينا وإيمانا على أنه الغالب الممتنع ، وأن حزبه كذلك »(13).

وهكذا إذا نظرت إلى عجز كل أية مع صدرها وجدت أن ذلك العجز مطلب لذلك الصدر، ففي قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]. فإنه سبحانه لما قدم نفي إدراك الأبصار عطف على ذلك قوله. وهو اللطيف خطابا للسامع بما يفهم،إذ العادة أن كل لطيف لا تدركه الأبصار، ثم عطف عليه قوله ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ مخصصا لذاته سبحانه بصفة الكمال: لأنه ليس كل من أدرك شيئا كان خبيرا بذلك الشيء(14).

ويبرز الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الأسرار البلاغية في هذا التذييل بقوله: « فتنزل من الجملة التي قبلها منزله التذييل أو منزلة الاستدلال على الجزئية بالكلية ،

11- الإتقان 303/3، ينظر: التعبير الفني في القرآن، ص 205.

12- إعجاز القرآن، دار المعرفة، بيروت، ط الثانية (1975/1395)، 221/2.

13- البرهان في لوم القرآن، الزركشي، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (1972/1391)، 78/1

14- المصدر نفسه 78/1، 79.

فيزيد الو صف قبله تمكنا »[15]. ويمكن القول إن هذا التعقيب جاء للاحتراس دفعا لتوهم أن من لا تدركه الأبصار لا يعلم أحوال من لا يدركونه

إن المتدبر للفواصل القرآنية يلاحظ أن الفاصلة جاءت متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها معناها بمعنى الآية قبلها بحيث لو حذفت لاختل المعنى و اضطرب الفهم.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام بعد أن خر صعقاً ثم أفاق: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ ﴾ [الأعراف: 143]. ينبه ابن البقال على هذا التعقيب فيفيد « بأن الرؤية وإن كانت جائزة عقلا، فقد تكون ممنوعة شرعاً، إما باعتبار بعض الأزمان، أو في حق بعض الأشخاص، فلما سأل موسى الرؤية بناء على جوازها عقلا، ومنعه منها في الحال، وكان ما كان من صعقته وإفاقته، علم سمعاً أنها لا تقع في الدنيا، ولم يكن ذلك عنده، فقال: سبحانك تبت إليك من إقدامي على سؤال ما لم تقرني عليه، وأنا أول المؤمنين »[16].

ويبدو التناقض واضحاً بين ابن عطية والزمخشري في تفسير هذا التذييل، تبعاً للمذهب العقدي الذي يسلكه كل منهما، فبينما يرى ابن عطية أن الذي يتحرز منه أهل السنة أن تكون توبة من سؤال المحال كما زعمت المعتزلة والمحتمل عنده أنه لفظ قال موسى لشدة هول ما اطلع، ولم يعن به التوبة من شيء معين، ولكنه لفظ يصلح لذلك المقام[17].

ويبرز الزمخشري نزعته الاعتزالية حينما أنحى باللائمة على أهل السنة والجماعة لاتخاذهم هذه العظيمة مذهباً، ويرى أن قوله ﴿وَأَنَاْ أَوَّلُ ﴾ بأنك لست بمرئي ولا مدرك بشيء من الحواس[18]. وكان الطبري قد سبقهما إلى تأويل هذا التعقيب حيث نقل عن أبي العالية أنه « كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن

15- التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر، تونس، طرابلس، 417/7.

16- مخطوط ابن البقال، مكتبة الشيخ مصطفى المغربي، الرباط ص 23/22، وانظر: المعيار المعرب: أحمد بن يحيى الونشريسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (1981/1401)، 280/2.

17- المحرر الوجيز، 157/17 بتصرف.

18- الكشاف: مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، 115/2 بتصرف.

بأنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة»[19].

وأولى الآراء بالقبول أن قوله ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ معناه من أن أسالك الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها، وأن قوله ﴿أَوَّلُ﴾ لفظ عام يقصد به الإيمان المطلق المنزه لله تعالى، ويدخل فيه الإيمان بأنه لا يرى في الدنيا.

وقد ترد الفاصلة القرآنية متضمنة لمقصد الآية السابقة لها، ويحتاج منها إلى تأمل وتدبر، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]. يجيب ابن جزي عن سؤال مفاده هلا قال لعلكم تعبدون مناسبة لقوله اعبدوا؟ والجواب أن التقوى غاية العبادة وكمالها، فكان قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أبلغ وأوقع في النفس[20].

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33]. يقول السيوطي في أسرار هذه الفاصلة «فإن ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ يدل على أن الفاصلة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا باللفظ لأن العالمين غير لفظ اصطفى، ولكن بالمعنى، لأنه يعلم أن من لوازم اصطفاء شيء أن يكون مختاراً على جنسه، وجنس هؤلاء المصطفين العالمين»[21].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: 37]. قال ابن أبي الإصبع «فإن من كان حافظاً لهذه السورة، متفطناً إلى مقاطع آيها النون المردفة، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة ﴿مُّظْلِمُونَ﴾، لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم»[22].

ومن الأسرار البديعة في التعقيبات القرآنية اختلاف الفاصلتين في موضعين متباعدين، مع أن المتحدث عنه واحد، ولا شك أن ذلك إنما هو لنكتة لطيفة حاول بعض المفسرين والمهتمين بعلوم القرآن إبرازها، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]. وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ

19- جامع البيان في تفسير، دار الجبل، بيروت، المجلد السادس، 38/9.

20- التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، (1983/1403) ص 18.

21- معترك الأقران، 3911.

22- الإتقان، 310/3.

فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116].

يبرز ابن الزبير الغرناطي السر في اختلاف الفاصلتين مع وحدة المتحدث عنه في الآيتين، فيقول: «لما وقع قبل الآية الأولى ذكر أهل الكتاب، وذكر اعتدائهم وتحريفهم بقوله ﴿يَشۡتَرُونَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء: 44]، ثم قال بعد هذا ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46]، وهذا إفصاح بكذبهم وافترائهم، ثم اتبع ما ذكر بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 116] ناسب ما تقدم من أوصاف الشرك الافتراء الذي هو أخص صفات من كذب من أهل الكتاب، فناسب ختام الآية بقوله ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]، ولما لم يتقدم مثل ذلك في الآية الأخرى، بل تقدم قبلها ذكر المنافقين أيام نبينا ﷺ، فناسب ختامها ما بني عليه سبحانه من قوله ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116]»[23].

ومن أمثلة هذا النوع في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: 34]. وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: 18]. فاختلفت الفاصلتان مع أن المتحدث عنه في الآيتين واحد، وقد نقل السيوطي عن ابن المنير قوله: «كأنه يقول إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت أخذها، وأنا معطيها، فحصل لك عند أخذها وصفان كونك ظلوماً وكونك كفاراً يعني لعدم وفائك بشكرها. ولي عند إعطائها وصفان: أني غفور رحيم، أقابل ظلمك بغفراني، وكفرك برحمتي، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير، ولا أجازي جفاك إلا بالوفاء»[24].

وكلام ابن المنير على الرغم من دقة معانيه وحبك أسلوبه فإنه فيه نظر لأن الآيتين السابقتين ليستا في موضع واحد حتى يربط بينهما بهذا الرباط المعنوي المتين، ولكن يمكن الاعتماد على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً. وحيث إن ابن الزبير الغرناطي قد أبدى اهتماماً بعلم متشابه اللفظ من آي التنزيل، وخصص له سفراً من مجلدين سماه ملاك التأويل، فإنه قد أجاد في تخريج هذا الاختلاف في الفاصلتين حيث قال: «إن آية إبراهيم تقدمها قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28]، وقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [إبراهيم: 30] ثم ذكر

23- ملاك التأويل: تحق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط الأولى، (1403/1983)، 347/1.
24- الإتقان، 306/3.

إنعامه على عباده، فناسب ما ذكر من توالي نعمه ودرر إحسانه، ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجعل الأنداد، وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار »[25].

أما آية النحل فلم يتقدمها غير ما نبه سبحانه عباده المؤمنين من متوالي آلائه وإحسانه، و ما ابتدأهم به من نعمة من لدن خلق الإنسان من نطفة تم توالت آيات الامتحان والإحسان، فذكر تعالى بضعا و عشرين من أمهات النعم فناسب هذا ختام قوله: ﴿ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[26].

ولاشك أن مراعاة الوحدة المعنوية بين آيات القرآن الكريم هو مظهر من مظاهر الإعجاز البياني لا ينتبه إليه كثير من المفسرين إلا من أوتي فسحة في النظر وملكة التأمل والتدبر.

ومن لطيف هذا النوع أن تتنوع الفواصل مع اتحاد المتحدث عنه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: 44]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: 45]، وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: 47].

والسر في هذا التنوع يعود لمعنى كل آية، فالأولى نزلت في أحكام المسلمين، والثانية في اليهود والثالثة في النصارى، والمعنى من لم يحكم بما أنزل الله إنكاراً له فهو كافر، ومن لم يحكم بالحق مع اعتقاده وحكم بضده فهو ظالم، ومن لم يحكم بالحق جهلا وحكم بضده فهو فاسق[27].

وقد أورد بعض العلماء رأياً آخر مفاده أن كل هذه الفواصل بمعنى واحد وهو الكفر، عبر عنه بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة واجتناب التكرار. وهذا كلام لا يستقيم لأنه لا يرد لفظ في القرآن إلا وله معنى مستقل يحدده السياق.

وقد فصل الزمخشري القول في هذه الفواصل، فنقل عن ابن عباس أن « من جحد حكم الله فهو كافر، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق، ونقل عن الشعبي

25- ملاك التأويل، 719/2.

26- المصدر نفسه، 720/2.

27- ينظر تفصيل ذلك في الإتقان: 307/3، البرهان 87/1.

أن الأولى في أهل الإسلام، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى»[28].

وأنا أرى هذه الصفات وردت في كل فئة بما يغلب عليها، ولا يعني تجرده من الأخرى، فالكافرون ظالمون وفاسقون، وصفة الجحود أظهر، والظالمون كافرون وفاسقون وصفة الجور أظهر، وكذلك الفاسقون.

وقد تتنوع الفاصلة مع اختلاف المتحدث عنه لنكتة لطيفة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 97]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98].

يبرز ابن عطية السر في ختم كل من الآيتين بعبارة تختلف عن سابقتها، فيقول معللاً ذلك «إنما وقع التفسير بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مع كثرة النجوم، وبـ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ مع إنشاء بني آدم، لأن الفقه أخص من مطلق العلم إذ هو شدة الفهم والفطنة»[29]. ووضح الزمخشري سر هذا الاختلاف بقوله «كان إنشاء الإنس من نفس واحدة، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً، فذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له»[30]. فالمفسران متفقان فيما ذهبا إليه، وإن اختلف الأسلوب، ولعل ذلك مرده إلى توارد الخواطر.

وشبيه بالآيتين السابقتين قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 24]، وقال في موضع آخر من السورة نفسها ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: 28]. فإن قيل: كيف قال أولاً: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، ثم قال آخراً ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟

يجيب ابن جزي عن هذا التساؤل «أنه لاين طمعاً في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]»[31]. ويبدو أن ابن جزي قد نقل المعنى عن الزمخشري الذي يطرح السؤال نفسه، ثم يجيب عنه بقوله «لاين أولاً فلما رأى منهم

28- الكشاف، 616/1.

29- المحرر الوجيز: 117/6.

30- الكشاف: 39/2.

31- التسهيل: ص/491.

شدة الشكيمة في العناد، وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض إن رسولكم لمجنون بقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾»[32].

ومن ذلك قوله تعالى وهو يسرد آلاءه ونعماءه على عباده حيث يقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: 71]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: 72]. يقول الشيخ الطاهر بن عاشور رأيه في هذا التنوع في الفاصلة معتمداً على مظاهر العلم الحديث «وناسب السمع دليل فرض سرمدة الليل، لأن الليل لو كان دائماً لم تكن للناس رؤية الأشياء، فإن رؤيتها مشروطة بانتشار شيء من النور على سطح الجسم المرئي، فالظلمة الخالصة لا ترى فيها المرئيات، ولذلك جئ في جانب فرض دوام الليل بالإنكار على عدم سمعهم، وجئ في جانب فرض دوام النهار بالإنكار على عدم إبصارهم»[33].

وقد سبقه إلى هذا الرأي الزبير الغرناطي، ولكن على قدر فهم أهل عصره من علوم الكون والحياة فقال «قوله في الآية الأولى ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ مناسب للمدرك ليلاً من ضربي ما يعتبر من المسموعات والمبصرات، إذ الليل حائل دون المبصرات، وإنما تدرك فيه المسموعات، لأن ظلمة الليل غير مانعة من إدراكها، وجئ مع ذكر النهار بما يناسب فقيل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، لأن المبصرات تدرك نهاراً ولا تدرك ليلاً»[34].

وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة يوهم ظاهرها أن هناك تناقضاً بين الآية وما ختمت به، وقد أطلق العلماء على هذا الموضوع (مشكلات الفواصل)[35].

وقد تصدى المفسرون والبلاغيون لهذه الآيات محاولين تأويلها وتعليلها وإزالة ما علق بها من إشكال ظاهر، مما يظهر بلاغة القرآن وسعة النص القرآني ورحابته.

ومن الآيات التي حظيت باهتمام المفسرين وعلماء البلاغة قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ [المائدة: 118]. فالسؤال المطروح لماذا لم تنته الآية بالغفران والصفح مع أن السياق يوحي ذلك؟

32- الكشاف: 110/3.

33- التحرير والتنوير: 171/20.

34- ملاك التأويل، 910/2 وما بعدها.

35- ينظر: الإتقان: 308/3 وما بعدها.

وأراد أحمد بن عمار المهدوي من مفسري الغرب الإسلامي في القرن الخامس الهجري أن يعلل سر هذا التعقيب فقال «ومعنى العزيز الحكيم في هذا الموضع أنك العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده من عذابهم والمغفرة لهم، الحكيم بما تفعله بهم»[36].

ويحاول حازم القرطاجني إيجاد تعليل لهذا التذييل، فينتقل عنه ابن جزي أنه كان يقف على قوله ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ويجعل ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ استئنافاً، ويجعل جواب إن في قوله ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[37].

وقد خطّأ ابن الزبير الغرناطي أصحاب هذا الرأي من وجهين: المناسبة والإعراب، وأشار إلى أن المناسبة تقتضيه، لئلا يكون في ذلك تعريض في طلب المغفرة لهم، فاقتصر على التسليم والتفريق دون الطلب[38].

واستعان ابن عرفة الرغمي بآيات من القرآن لتعليل هذا التعقيب، حيث ورد في تفسيره «لم يقل الغفور الرحيم، لأن العزيز هو الذي ينفذ مراده، ولا ينفذ فيه مراد أحد، والحكيم هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ﴾ [الأنعام: 124] وقوله تعالى: ﴿أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26]»[39].

ويستعين بكري أمين بآراء سابقيه كالسيوطي والزركشي في تعليل هذا التعقيب، فيقول: «إذا أمعنت النظر في الآية وجدت أن الذي استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من كانت سلطته أعلى السلطات وعزته فوق كل عزة، ومن كان كذلك وجب أن يتصف بالحكمة التي يرفدها العقل والمنطق السليم، وينأى عنها الحمق والتسرع والظلم والتهور»[40]. وهو يعني أن العزة قد جاءت في هذه الآية مقرونة بالحكمة في تعبير رائع وتصوير جامع، وبيان قاطع لخالق عزيز حكيم.

36- المهدوي وجهوده في التفسير والقراءات، سعيد الفلاح، رسالة دكتوراه مرقونة رقم 25، الكلية الزيتونية، تونس 1987 ف، ص311.

37- التمهيل: ص 17.

38- ملاك التأويل: 409/1.

39- تفسير ابن عرفة: تحق: حسن المناعي، ط مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس ط الأولى (1987/1407)، 420/1.

40- التعبير الفني في القرآن، ص 204.

وأولى الآراء بالقبول أنه لا يجوز الغفور الرحيم في هذا الموضع، لأن الله قطع لهم بالعذاب في قوله: ﴿ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 118، 48]. فلم يذكر الغفران مع الزلل، ولأن الموقف تبرٍ منهم، أما وصف الحكمة فهو احتراس حسن في هذا المقام، أي وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض لأحد على حكمك، لأن أفعالك معللة بالحكمة.

ومن مشكلات الفواصل أن يستعمل القرآن كلمة تستحق التقديم، فيضعها في الفاصلة، مثل قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ ﴾ [طه: 70]. وقد استحوذت هذه الآيات على اهتمام البلاغيين، لا سيما المولعين منهم بالسجع، واتخذوها دليلاً على وجود السجع في القرآن، في جدل طويل ليس هنا مقامه.

وقد نقل الشيخ المراغي عن البيضاوي تحليله لهذا التقديم، فقال «وإنما لم يقتصروا على ذكر موسى، بل ذكروا هارون، وقدموه عليه، خوفاً من هذه الشبهة، إذ أن فرعون كان يدعي ربوبيته لموسى، لأنه رباه في صغره كما قال: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: 18]»[41].

وقد رفض الباقلاني أن يكون السبب في تقديم هارون على موسى في الآية السابقة هو لمكان السجع، ولتساوي مقاطع الكلام، لأنه ممن ينكرون إنكاراً شديداً وجود السجع في القرآن، يقول «لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أن عادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتبين فيه البلاغة»[42]. فالباقلاني يرى أن هذا التنوع في التقديم والتأخير هو من باب التفنن في الكلام، وتقتضيه فصاحة القرآن.

ويذكر الحسناوي مبررات عقلية لهذا التقديم والتأخير، فيقول: «إن تقديم هارون، لأنه أفصح من موسى عليهما السلام، وأكبر منه بثلاث سنوات»[43].

ويحسم عبد الكريم الخطيب الأمر بتوجيه سديد، ويأتي بتعليل طريف، حيث يقول: «لهذه المقولات الثلاث التي حكاها القرآن على لسان السحرة هي جميعها من

41- تفسير المراغي، ط الثالثة، (1965/1385 ف)، 130/6.

42- إعجاز القرآن، تحق، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، بيروت، ط أولى، (1991/144) ص 115.

43- الفاصلة في القرآن: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، دار عمان، الأردن، ط الثانية، (1986/1406)، ص 119.

مقولاتهم في تلك الحال فقال بعضهم ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ ﴾، وقال بعض آخر ﴿رَبِّ مُوسَىٰ ﴾ وقال بعض ثالث ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهكذا قالوا جميعاً مقولات تدل على الإيمان بالله ... ومحال أن يكونوا جميعاً قالوا قولاً واحداً، على صورة واحدة، فذلك ما لا يتفق لهذا الجمع الكثير، ولا يشهد له واقع الحياة»[44]. وهذا التعليل أولى بالقبول، لأنه يصور الحالة النفسية التي كان عليها السحرة وهم ينظرون معجزة موسى تلقف ما يصنعون.

وهذا المثال الأخير يقودنا إلى الحديث عن التناسب الصوتي في الفواصل القرآنية و مدى ارتباطه بالمعاني التي تسبقه ، فالإيقاع الصوتي هو نهايات الدفقات الصوتية للجمل عند الوقف، نجد لها من الحلاوة و الإطراب، حظاً يثير المشاعر والأحاسيس، ويؤكد بأن لها علاقة بالإعجاز القرآني.

وحينما تطورت الدراسات الأدبية، وظهر امتزاج المعاني بالإيقاع، برز اتجاه دراسة الإيقاع الصوتي في القرآن لغرض تأصيله معلماً من معالم إعجازه، انطلاقاً من الإحساس بتلك الموسيقى في مقاطع الكلمات والجمل القرآنية، يقول محمد مبارك: « وقد بلغت هذه الخاصة الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني الرائع، حيث تناسق المعاني والنغمات والفكرة والجرس أحسن تناسق »[45].

وتتناسب حروف فواصل الآيات في إيقاعها وزنا أو جرساً لتوحي بالمعنى العام للسورة التي انتظمت في سلكها، كما هو ملحوظ في فواصل سورة طه المختومة بالألف المقصورة، في نغمات قصيرة أو متوسطة بين الآيات، ويعلل أحمد أبو زيد ذلك التناسب بقوله: « إن الآيات التي ترد في مقامات الترغيب والتلطف، فإن الرضي والمحبة اللذين يغمران المقام تنعكس آثاره على الألفاظ والعبارات فتجعلها رقيقة رخية الإيقاع حيث فيه من أصوات اللين ما جعل إيقاعه متموجاً رخياً »[46]. وكذلك الشأن في سورة النجم، لأن المقام مقام القرب والمناجاة.

وختمت فواصل سورة القمر بالراء المضخمة في نفس نغمي طويل، ولكنه مقفول في أخره لا يحوي حرف مد، بل هو ساكن ليدل على المعنى العام للسورة، وهو

44- إعجاز القرآن، 219/2، 220.

45- خصائص العربية: مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 1960 ف، ص 39.

46- التناسب البياني في القرآن، ص 308.

المصرح به في قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر: 16، 18، 21، 30][47].

وهناك توافق عجيب بين تعقيب الآيات المتحدثة عن الجن وموضوع تلك السورة وقد ختمت كل آية منها بألف الإطلاق، لتدل على خصبصة مميزة للجن عن الإنس، وهي سرعة الحركة، وقدرة أكثرهم عن التحليق في آفاق بعيدة[48].

وفي هذا يقول عمر السلامي « إن وحدة التناسق التي تسود آي القرآن وسوره نلمسها في إيقاعه، لأن الإيقاع يوحي بجو السورة والمعنى العام لها، ويصح أن نقول العكس أيضاً في أن محتوى السورة وجوها يوحي بتنوع الإيقاع أيضاً »[49]. وهو يعني أن كل سورة منه تحمل إيقاعاً عاماً يضم في وحداته المعنوية إيقاعات مختلفة تتسق مع الإيقاع العام لكل سورة.

ومن أمثلة تنوع الإيقاع لاختلاف المعاني في سورة مريم حيث يستمر طويلاً بالياء والألف، حتى ينتقل القرآن إلى عرض مسألة أخرى بعد الآية (33) وهي مناقشة دعوي النصارى بألوهية عيسى حيث يتحول الإيقاع إلى ختم الآيات بالواو والنون، وهكذا في بقية السورة، فالتناسب حاصل بين الوحدات المعنوية داخل السورة الواحدة، مع عدم الإخلال بالتوافق مع المقصد العام للسورة.

وهكذا يتألف التركيب المعنوي والتصويري للآيات مع جرس الكلمات وموسيقاها، فيعطي للروح صفاءً لا نجده في إشعار المتنبي، فانظر إلى الجرس الموسيقي في اختيار الألفاظ القرآنية الآتية: الإد، التفطر، والشق والخر، والهد في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: 88-91]، ويبدو ما في هذه الآيات ومثيلاتها من تعانق الجرس اللفظي مع التصوير المعنوي في مشاهد لن يستطيع المبدعون تصويرها بالشعر ولا بالنثر.

وقد ترد الفواصل القرآنية على صيغ المبالغة حيث تحدث إيقاعاً خاصاً ذا جرس يتصل بالنطق والسماع، ونغمة مشوبة بالقوة والعنف، مثل ﴿كُبَّارًا﴾ في قوله

47- الإيقاع الصوتي في القرآن: سعيد فاندي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، العدد 20، السنة 2003 ف، ص 113.

48- المصدر نفسه ص 113.

49- الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسة عبد الكريم عبد الله تونس، 1980 ف، ص 257.

تعالى ﴿وَمَكَرُواْ كُبَّارًا﴾ [نوح: 22] تفيد بلاغة في المعنى، ووقعاً شديداً على النفس، وإيقاعاً يشبع الفم انفتاحاً وضغطاً، فتحس النفس وكأنها تنحدر إلى الأرض تعبيراً عن شدة مكر الكفار وعتوهم، وهذا نفسه يرد في كل من ﴿دَيَّارًا﴾ و﴿كَفَّارًا﴾(50).

ويمكن القول في الختام إن ترتيب المقاطع الصوتية في نظم الآيات يعد من مصادر جمال الإيقاع القرآني، لأنه ترتيب يقوم على مبدأ التناسب، ولعل هذا التناسب الإيقاعي هو الذي يمكن المرتلين بهذه الأصوات العذبة التي تهز نفوس المستمعين، فيتآزر التصوير المعنوي مع الإيقاع الصوتي، وتتردد في كلماته مقاطع تنشرح لها القلوب، وتستريح إلى ترددها الآذان.

50- الإعجاز الفني في القرآن، ص 241. ملاحظة: الآيات القرآنية الواردة في البحث برواية حفص عن عاصم.